هنرى كورييل

«افتتح الشيوعى هنرى كورييل فى ميدان مصطفى كامل فى قلب القاهرة مكتبة اسمها "مكتبة الميدان" وقد تخصصت فى بيع الكتب الشيوعية وهكذا أصبح بالقاهرة مصدر معلوم للدعاية الشيوعية».
(من رسالة وجهها السفير البريطانى بالقاهرة إلى وزير خارجيته)

الاسم: هنرى دانييل كورييل

الاسم الحركى: يونس

تاريخ الميلاد: ١٩١٤

تاريخ الاغتيال: ٤ مايو ١٩٧٨

الصفة: أكثر الشيوعيين المصريين إثارة للجدل، البعض يضفى عليه مديحا غير مسبوق والبعض هاجمه هجوما غير مسبوق.

ولكنك إذا جلست إلى «الرفيق يونس» تدهش من فرط هدوئه وإحساسه بالسكينة، وهى سكينة غير مصطنعة وإن كانت تبدو مبالغا فيها، وكورييل يجمع فى تكوينه صفات عدة فهو يهودى ابن مليونير صاحب «كورييل وموصيرى بنك» تعلم على يدى الآباء اليسوعيين، وقد ظلت تعاليمهم تؤثر فيه وفى تكوينه الشخصى، وحتى عندما قابلته فى باريس وكان لاجئا سياسيا ممنوعا من ممارسة أى نشاط سياسى، استقبلنى ليجرى حواره معى عدة مرات، أكثرها فى دير كاثوليكى واثنان منها فى رحاب كنيسة نوتردام، ولأنه تعلم من اليسوعيين البساطة فى الحياة والبعد عن التباهى والفخامة فى العيش فقد عاش حياة بسيطة سواء فى القاهرة أو فى باريس، وعندما جرى ترحيله من مصر ١٩٥٠ لم يكن يمتلك سوى قصر شديد الفخامة فى الزمالك ومكتبة ضخمة، أما المكتبة فقد تبرع بها إلى دير الآباء اليسوعيين بالدراسة، أما القصر فقد ظل مغلقا حتى قامت الثورة الجزائرية

وأسهم فيها كوربيل مناضلا وظهيرا لها فى باريس يرتب للهاربين ملجأ آمنا ويدبر وثائق شخصية يقوم بتزويرها واحد من أعضاء منظمته الدولية السرية «تضامن» والتى تخصصت فى مساعدة القوى الثورية المناضلة ضد الاستعمار «الجزائر – جنوب إفريقيا – منظمة التحرير الفلسطينية.. إلخ» وكان «يونس» هو الوحيد الذى ائتمنته الثورة الجزائرية على ثروتها المكونة من عدة ملايين من الفرنكات الذهبية، واحتفظ كوربيل بالكنز لدى المفكر الذى لا يتطرق إليه الشك مكسيم رودنسون ثم أعاده لأصحابه بعد نجاح الثورة، أما قصره الفخم فى الزمالك فقد تبرع به لحكومة الثورة، ويرتفع الآن علم الجزائر فوق سفارتها.. التى كانت قصر الرفيق يونس.

ونعود إلى جلسات الحوار معه: «فى عام ١٩٣٦ تأثرت إلى حد كبير بنهوض الحركة الوطنية المصرية، وكان أول تعبير شخصى لهذا التأثر هو أننى عندما بلغت سن الحادية والعشرين قررت اختيار الجنسية المصرية بدلا من الإيطالية، ويمكنك أن تقول إننى أصبحت ماركسيا فى عام ١٩٣٧ واتصلت بآخرين وأسسنا الاتحاد الديمقراطى»، ويمكن القول إن الاتحاد الديمقراطى كان مجرد مرحلة انتقالية تعقد خلالها ندوات ولقاءات ومحاضرات بينما هو يتعلم ويلاحظ ويكتشف من بين الحاضرين أشخاصا يفاتحهم ويضمهم إلى مجموعة سرية، وبعد المرحلة الانتقالية تأسست «منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى» (ح.م) ونلاحظ أنه لم يتعجل فى إطلاق اسم شيوعى عليها مراعيا – من وجهة نظره – أن مصر فى مرحلة التحرر الوطنى، ونعود إليه فى حواراته: «أنا أعتبر أن تاريخ تأسيس الحركة المصرية للتحرر الوطنى هو تاريخ أول مدرسة كادر لهذه المنظمة، وإذا تابعت المدرسين والتلاميذ فى هذه المدرسة ستعرف كيف بدأنا، ولماذا نجحنا وكيف توصلنا إلى كوادر مصرية قادرة وفاعلة، فالمدرسون: محمد زكى هاشم (وكان وقتها وكيلا للنيابة وأصبح فيما بعد محاميا شهيرا وسياسيا مرموقا) وأحمد الدمرداش تونى (رئيس اللجنة الأوليمبية المصرية فيما بعد)، وتحسين المصرى ومحمد نصر الدين (مدرس لغة فرنسية فى كلية الشرطة) وموسى الكاظم وأنا، أما الطلبة فكانوا ٢٥ طالبا منهم سيد سليمان رفاعى «الرفيق بدر» والذى ضم إلى التنظيم مجموعة كبيرة من الفنيين فى سلاح الطير ن وأصبح فيما بعد السكرتير العام لمنظمة (حدتو) يوسف مصطفى (فنى بالطيران) سيد حافظ (فنى بالطيران) مختار العطار (طالب بالفنون الجميلة) كمال شعبان (طالب بكلية الهندسة) عبد

الرحمن الثقفى (طالب بالأزهر) عبده دهب (سودانى) وتفرغ الجميع للدراسة يستيقظون فى الصباح فينشدون نشيد الأممية الشيوعية: قوموا عبيد الأرض قوموا - قوموا يا محرومين من الخير، سخطكم بقى رعد ياللا قوموا - دا الانتصار الأخير. وبعدها تبدأ المحاضرات: تاريخ مصر على ضوء المادية التاريخية - جغرافية مصر - الاقتصاد السياسى - المادية الجدلية - صراع الطبقات.. إلخ، وفى ختام المدرسة ألقيت خطبة قلت فيها للطلاب قد نكون نحن المدرسين عناصر ثورية لكنكم أنتم ومن الآن قد أصبحتم أصحاب القضية».

* * *

«فى النادى الديمقراطى نشب خلاف فكرى، أنا ومجموعة أعلنا أننا شيوعيين لكن ما معنى أن نكون شيوعيين؟ لا أحد يعرف. كيف؟ قلت يجب أن ندرس ولكى ندرس يجب أن تكون هناك كتب، ولهذا افتتحت مكتبة الميدان».
هنرى كورييل

ونمضى مع رحلة تأسيس الحركة المصرية للتحرر الوطنى. ويمضى كورييل قائلا: «أول منشور باللغة العربية أصدرته (ح.م) كتبه أربعة: جورج بوانتيه ومحمد نصر الدين ود. فؤاد الأهوانى وأنا. وطبعنا منه ٤٠٠٠ نسخة ونزلنا إلى الشارع ووزعناه بأنفسنا. وكان ذلك عام ١٩٤٢. وبعد ذلك أصدرنا مجلة «حرية الشعوب». وبعدها أعددنا كورس محاضرات أولها محاضرة بعنوان «عيوب المجتمع» وكانت تقدم تفسيرا علميا لعيوب المجتمع ومصادرها الحقيقية، وكان الهدف منها ضرب التيارات الإصلاحية التى بدأت تنتشر فى ذلك الحين كذلك أصدرنا سلسلة الكتب الخضراء وهى كتب ماركسية مهمة مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية (١٢ كتابا)، وقد أقمنا (ح.م) على أساس فئوى فهناك أقسام قومية مثل قسم الأرمن والنوبيين والسودانيين. وأقسام اجتماعية: عمال - طلاب - نساء - أزهريون، وكنا نسعى بذلك إلى حماية أمن المجموعات وإلى قدرة كل مجموعة على التوسع فى محيطها، وفى الجيش بدأنا بنشاط واسع جدا وسط صف ضباط سلاح الطيران لكن بداية العمل وسط الضباط جاءت بعد الوحدة مع ايسكرا، وكانت تضم أحمد حمروش الذى قام بتأسيس قسم الجيش، وكنا نسميه اسما سريا «شركة الملح والصودا». وحدث أن اتصل أحد زملائنا السودانيين (صالح عرابى) بضابط

بالجيش من أصل سودانى هو محمد نجيب الذى طلب أن يقابلنى ليعرف رأى الشيوعيين فى المسألة السودانية، وكانت فرصة كى ندرس هذا الموضوع وقررنا أن نرفض الشعار السائد «نيل واحد - شعب واحد - ملك واحد» ورفعنا شعار «الكفاح المشترك» ضد العدو المشترك. وعندما اقترب العام الدراسى ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب توقعنا نحن وكثير من السياسيين أن تبدأ فى أول يوم دراسى (٦ أكتوبر) إضرابات للمطالبة بجلاء قوات الاحتلال. وأعددنا نحن منشورا موجها إلى جنود وضباط الجيش والبوليس ندعوهم فيه إلى عدم التصدى للمظاهرات، لكن أتى ٦ أكتوبر ولم تقم مظاهرة واحدة، وشعر كثيرون منا بالإحباط وتهكم علينا البعض لكننا قلنا إن هذا ليس دليل فشل لنا، وإنما هو فشل القيادات الوطنية الرخوة التى تخشى من التصادم (حزب الوفد - مصر الفتاة.. إلخ) ولهذا قررنا تأسيس قوة جماهيرية طبقية منظمة وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال».

ويمضى كوربيل ليقرر أن «ح.م» وبعدها «حدتو» كانت ذات حس أممى راق فقد اهتمت بتجنيد العديد من الطلاب السودانيين الذين أسسوا فى السودان منظمة «الحركة السودانية للتحرر الوطنى» (حستو) وكذلك مجموعة من الطلاب اليمنيين وخاصة طلاب عدن ومجموعة من الإثيوبيين كانوا قد حضروا ليتدربوا فى مصلحة البريد وشكلت منهم مجموعة لتعود فتنشط فى بلادها. وتظل الروح الأممية تلاحق كوربيل، فقد اندمج مع ثوار الجزائر وقدم لهم مساعدات كبيرة وسجن معهم فى فرنسا.

كذلك كانت «ح.م» ثم «حدتو» تعملان لإصدار صحافة علنية واسعة الانتشار: حرية الشعوب - أم درمان - الجماهير - البشير - الكاتب - الملايين - الغد.

وعندما طرد هنرى كوربيل من مصر رغم أنه ظل ومنذ ١٩٣٦ وحتى ١٩٥٠ مصرى الجنسية وصل إلى روما وتسلل منها سرا إلى باريس حيث أسس مجموعة أطلق عليها اسما حركيا هو «مجموعة روما» وظلت هذه المجموعة مهتمة بالشأن المصرى وبالدفاع عن السجناء الشيوعيين. وخلال إقامة كوربيل فى باريس أقام شبكة علاقات واسعة نجح خلالها فى الحصول على معلومات بالغة السرية وبالغة الدقة عن الحشود العسكرية الفرنسية التى تستعد لغزو مصر فى العدوان الثلاثى. وكانت البيانات دقيقة إلى درجة أنها تضمنت أرقام الفرق وتسليحها وكان الملحق العسكرى المصرى فى باريس آنذاك هو ثروت عكاشة الذى تسلم هذه المعلومات وأسرع بها إلى مصر حيث سلمها إلى عبد الناصر شخصيا. ويروى ثروت عكاشة فى مذكراته «مذكرات فى الفن والسياسة -

الجزء الأول» كيف أن عبد الناصر دهش من دقة المعلومات ودهش عندما علم أن مصدرها هو كورييل، وطلب ثروت عكاشة مكافأته بإعادة الجنسية المصرية إليه، ووعد عبد الناصر ولم يف بوعده.

وعندما تأسس الحزب الشيوعى المصرى باتحاد كل التنظيمات جاءت لخصوم كورييل فرصة الانتقام فأصدر المكتب السياسى للحزب فى مارس ١٩٥٨ أى بعد شهرين من الوحدة قرارا نصه: «يقرر المكتب السياسى حل مجموعة روما نهائيا ابتداء من ١٤ مارس ١٩٥٨، ويحظر أى اتصال بأى من أفراد المجموعة».

ويصل القرار إلى باريس وتجتمع المجموعة، ويستعيد كورييل تسامحه اليسوعى ويصدر القرار التالى: «احتراما للنظام الحزبى تحل فورا مجموعة روما، وتعبر المجموعة فى ذات الوقت عن أسفها للشكل الذى تم به اتخاذ القرار. ويقرر الرفاق وهم خارج الحزب الاستمرار فى دفع اشتراك مالى يساوى الاشتراك السابق، وتضع المجموعة تحت تصرف الحزب آلاف النسخ من المؤلفات النظرية التى قمنا بترجمتها إلى العربية وطباعة آلاف من النسخ منها، وحتى نتلافى أى شبهة فى أننا نحاول الظهور بمظهر الممثلين للحزب الشيوعى المصرى بالخارج، فقد قررنا أن نختار لأنفسنا اسما لا يفسح مجالا لأى لبس. قررنا أن نطلق على أنفسنا اسم «مجموعة الإخلاص - مجموعة بالخارج لأعضاء سابقين فى الحزب الشيوعى المصرى ظلوا مخلصين لحزبهم». وبعيدا عن المرارة واليأس لما مسهم من إجراء يرونه غير عادل يلتزم الرفاق بأن يبذلوا جهودا مستمرة فى خدمة قضية الطبقة العاملة المصرية وقضية استقلال مصر وقضية السلام - عاشت الطبقة العاملة المصرية - عاش الحزب الشيوعى المصرى».

لكن كورييل لا يهدأ فيؤسس منظمة «تضامن» وهى منظمة أممية سرية ضمت فى صفوفها أعضاء من مجموعة روما وقساوسة كاثوليك يسعون لسلام البشرية والدفاع عن المظلومين ومفكرين فرنسيين كباراً. وقدمت «تضامن» مساعدات كبيرة لحزب المؤتمر فى جنوب إفريقيا ولحركات التحرر الإفريقية ولأحزاب يسارية مطاردة فى البرتغال وإيران والعراق وغيرها، كما قدمت دعما كبيرا للقضية الفلسطينية وفتحت أمامها قنوات اتصال متعددة فى أماكن عديدة فى العالم.

وفى ٤ مايو ١٩٧٨ أطلقت رصاصات على هنري كورييل وهو فى مصعد منزله الذى يفترض أن عنوانه لم يكن معلنا. ولم يعرف القاتل. غير أن منظمة شبه فاشية وسرية اسمها «دلتا» أصدرت بيانا من سطر واحد «اغتلنا اليوم عميلاً مهماً للاتحاد السوفيتى هو هنرى كورييل».